

جسور

جسور للدراسات
JUSOOR for STUDIES



قراءة في كتاب "الإسلام والعلمانية"

مراجعات الكتب

عربي عبد الحيه عربي
باحث في مركز جسور للدراسات

تشرين الثاني/ نوفمبر 2020
www.jusoor.co

قراءة في كتاب "الإسلام والعلمانية"

عربي عبد الحية عربي

أولاً: مدخل وتقديم

إثر صعود الإيديولوجيا الأصولية وانتشارها في العالم، ازداد تناول قضية الإسلام والعلمانية في مختلف الصعد الإعلامية والفكرية، وأضحت هذه القضية إحدى أبرز القضايا على الساحة الدولية عامة وفي الفضاء الأوروبي والفرنسي بشكل خاص.

برزت في هذا الإطار جهود مختلفة لعدة مفكرين وباحثين فرنسيين اشتهرت كتبهم وأراؤهم بترجماتها للعربية، ولعل أبرزها كتب المفكر الفرنسي أوليفيه روا مثل "عولمة الإسلام" و"الإسلام والعلمانية" و"الجهاد والموت" و"الجهل المقدس"، بالإضافة إلى جيل كيبل الذي ألف العديد من الكتب أبرزها "يوم الله، الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث" و"المثقف والمناضل في الإسلام" و"جذور الإسلام المتطرف" وكذلك فرانسوا بورغا صاحب كتاب "فهم الإسلام السياسي" و"الإسلام السياسي في زمن القاعدة" و"الإسلام السياسي، صوت الجنوب"، إضافة إلى باحثين آخرين من جيل الشباب كستيفان لاكروا المتخصص في دراسة الحركة الإسلامية في السعودية والتي عرضها في كتابه "زمن الصحوة".

لا يُعدّ بحث مسألة الإسلام وعلاقته مع العلمانية في فرنسا أمرًا طارئًا، وإنما هو قضية متجددة تتشابك الرؤى فيها بين الفينة والأخرى، وتُستدعى الآراء والمناقشات حولها بالتوازي مع تطورات السياق الاجتماعي والأمني، ولذا فإنها مسألة شبيهة وجودية تستدعي التّعنية للدفاع عن قيم الجمهورية الفرنسية عامة وعن قضية العلمانية فيها بشكل خاص.

ثانياً: المؤلف وكتاب "الإسلام والعلمانية" قراءة وصفية

ينحدر الأكاديمي الفرنسي أوليفيه روا من مدينة "لاروشيل" غرب فرنسا لأسرة تعتنق المسيحية البروتستانتية، وقد نال درجة الأستاذية في الفلسفة عام 1972، إضافة لنيله الدكتوراه في العلوم السياسية بجانب ذلك.

يتبين لنا -من خلال سيرته العملية- أنه شغل العديد من المناصب الأكاديمية والديبلوماسية، فترأس بعثة منظمة الأمن والتعاون في أوروبا إلى طاجيكستان في عامي (1993-1994) كما كان مستشارًا لمكتب منسق الأمم المتحدة لأفغانستان عام (1988)، وقد وُظفَ مستشارًا في وزارة الخارجية الفرنسية إلى عام 2008.

يعمل الأكاديمي روا الآن أستاذًا جامعياً في معهد الجامعة الأوروبية في فلورنسا "إيطاليا"، وقد أدار سابقاً عدة أقسام ومراكز بحثية - على سبيل المثال- الأبحاث والدراسات في المركز الوطني للبحث العلمي في باريس (CNRS) وما زال يرأس مشروع "ReligioWest" الذي يموله مجلس العلوم الأوروبية ERC منذ عام 2011، وتغطي أعماله الميدانية "الإسلام السياسي" في الشرق الأوسط والدول الغربية إضافة إلى اهتمامه بالأديان المقارنة¹.

تعود أهمية كتاب "الإسلام والعلمانية"² إلى أسلوب "روا" في معالجة عدة إشكالات إضافة إلى القيمة التفكيكية لهذه الإشكالات ذاتها.

قسّم أوليفيه مادة الكتاب على تمهيد وأربعة فصول، حيث تناول الفصل الأول مركزية العلمانية وهوية فرنسا والعلاقة بين فرنسا والعلمانية من ناحية، وعلمانية فرنسا والإسلام من ناحية أخرى³، وخصّص الفصل الثاني لبحث الصلة بين الإسلام والدينيوية⁴، والعلمانية والمسيحية، إضافة إلى الإجابة عن السؤال المثار حول كون عقيدة الإسلام عقبة أمام العلمانية، ودور الدول الإسلامية في إنشاء فضاء عام للعلمانية⁵، ويخلص الفصل الثالث إلى بحث أزمة الدولة العلمانية من حيث مواجهة أشكال التدين الجديدة، وتفكيك خصوصية الدين وقراءة تحولات الأصولية المعاصرة باعتبارها نتاجاً للعلمة⁶.

ثالثاً: العلمانية والإسلام أين التهديد؟

يستفيض أوليفيه في الحديث عن مركزية العلمانية ودورها في تشكيل هوية فرنسا الثقافية والحضارية⁷، ويتوقف ملياً عند محاولات صناعة "الرهاب من الإسلام"، بحيث تبدو المسألة الإسلامية في فرنسا مسألة وجودية، فكأن محض وجود الإسلام بحد ذاتها في أرض فرنسا طعنٌ في هوية البلاد أو في طبيعة مؤسساتها على الأقل⁸.

يطلق أوليفيه أهم أسئلته قائلاً: "هل يشكل الإسلام تهديداً للعلمانية، أم أن الهوية الفرنسية بلغت من التأزم حدّ أن يضع مئات من الفتيات المحجبات والدعاة الملتحين يمكنهم القضاء عليها؟، وهل يعتمد النقاش حول الإسلام على المكان الذي يحتله الدين في مجتمعنا، أو أن الإسلام، على الرغم من مظاهر الاستمرار، هو كما يُدرك اليوم دينٌ جديد مختلف ينطوي على تهديد نوعي؟، وفي هذه الحالة، هل يرجع ذلك إلى نوعية اللاهوت

¹ <https://bit.ly/2DnFRyA> أوليفيه روا، معهد الجامعة الأوروبية، من خلال الرابط الآتي:

² الإسلام والعلمانية، أوليفيه روا، ترجمة: صالح الأشمر، دار الساق، بيروت، ط1، 2016.

ينظر المصدر السابق، ص: 27-65.

³ استخدم المترجم مصطلح "الدينيوية"، لكننا لم نجد له وجهاً لغوياً، ولذا فقد اعتمدنا مصطلح "الدينيوية" في هذه المراجعة بديلاً.⁴ خاصة وأن المترجم استخدم الدينيوية والدينيوية في أكثر من موضع كمترادفات.

ينظر المصدر السابق، ص: 67-111.

ينظر المصدر السابق، ص: 114-135.

ينظر المصدر السابق، ص: 7-26.

ينظر المصدر السابق، ص: 8.

المسلم، أم مردّه، على نحو أكثر اتساعاً، إلى حقيقة أن الإسلام هو دين المهاجرين"⁹؟ وأن الإسلام بطبعه غير قابل للاندماج وإن كان في شكل "علماني"¹⁰.

يؤكد أوليفيه على ضرورة دراسة النصوص الدينية وتأويلاتها مع ضرورة التفريق عن الدين من ناحية الثقافة بخلفيات هذه الكلمة أنثروبولوجياً، حيث لا يوجد الدين إلا من خلال ثقافة يمكن إدراكها كثقافة عرقية مرتبطة بالجماعة والأعراف والتقاليد والهوية الذاتية، ومن جهة "الأصولية" حين ترتفع التأويلات العلمانية لتصبح بمثابة الدين المحض، وهذا ما يشكل تحدياً للعلمانية التي اعتمدت في صياغة نفسها المنطق ذاته¹¹.

هنا يؤكد روا على مسألة غاية في الأهمية؛ وهي أنه من العبثية النظر إلى العلمانية على أنها مسألة علاقة بسيطة بين الدولة والدين، لأن العلمانية -برأيه- تتخذ الهيئة التي يتحدد بها المجتمع سياسياً¹²، وكذلك فإنهما -أي الدين والعلمانية- يُستدعيان باسم الهوية ويوضعان وجهاً لوجه كما لو أن أحدهما مرآة للآخر¹³، وهي النقطة التي يثيرها روا مراراً ليؤكد أن العلمانية في الواقع نتاج قراءة دينية تسعى لترسيخ هوية جديدة كما هو حال الدين¹⁴.

رابعاً: العلمانية والدين

يميز الكتاب كذلك بين مفهومي "العلمانية" و"الدينونة" باعتبارهما مختلفين في التعريف والتوظيف، فالدينونة برأيه يتحرر فيها المجتمع من مقدّس لا يرفضه بالضرورة، بينما تقصي الدولة العلمانية الشأن الديني إلى ما وراء الحدود التي رسمتها هي بحكم القانون¹⁵، وبناء على ذلك فإن أنماطاً مختلفة من الدول تتشكل بناءً على المفهوم الذي تتبناه، فقد يتبني بلد ما تفعيل الدينونة لا العلمانية، فيكون لديه دين رسمي كبريطانيا والدنمارك، إلا أنه متحرر من الالتزام بضرورات الدين المقدّسة، كما يمكن أن يكون البلد علمانياً؛ إلا أنه يعترف بالديني في الشأن السياسي والعام كما هو الحال مع الولايات المتحدة¹⁶.

يرى أوليفيه أن تعدد الأنماط يمكن أن يقود إلى أشكال متنوعة من ديمقراطية في الحكم، إلا أن العقبة الرئيسية أمام الديمقراطية في الشرق الأوسط تأتي من الأنظمة العلمانية التي تستمد أساليب وشكل الحكم من نماذج فاشية أوروبية أو من الدول الاشتراكية الديكتاتورية بعيداً عن هوية الإسلام، ولذلك فإن هذه البلاد تنجح عادة للعلمانية الإقصائية¹⁷.

المصدر السابق، ص: 9.

المصدر السابق، ص: 10.

ينظر المصدر السابق، ص: 22.

ينظر المصدر السابق، ص: 25.

ينظر المصدر السابق، ص: 26.

ينظر المصدر السابق ذاته.

ينظر المصدر السابق، ص: 29.

ينظر المصدر السابق، ص: 30.

ينظر المصدر السابق، ص: 31.

يؤكد روا أن القوانين التي تنظم المجال الديني في المجال العام الفرنسي منذ تأكيد مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة في حقيقتها استبدال مجال ديني معين بمجال ديني آخر، ولخطاب أيديولوجي بخطاب أيديولوجي آخر، والعلمانية في نظره مجموعة من القوانين، والقانون ليس حالة عقلية أو مفهوماً محضاً، وإنما هي مجموعة من الإجراءات التي يقرر صلاحيتها إرادة المشرع؛ وعلى ذلك فإن حقيقتها سياسية¹⁸.

يرى أوليفيه روا أنه الأديان التوحيدية لا يمكن أن تقبل العلمانية، نظراً لأن هذه الأديان تستند إلى الوحي، ولذا فإنها نهائية برؤيتها الأساسية وكلّ دين منها يرى في أحكامه الحقيقة، إلا أن الإسلام من بين هذه الأديان يُنتقد حين يبحث موضوع العلمانية، ويتبادر إلى الذهن دوماً، ولكن عندما يراد التأكيد على خصوصية الإسلام في مواجهة العلمانية يصر إلى التركيز على أنّ المسيحية تقبل العلمانية استناداً إلى المقولة الشهيرة "أعطوا ما لقبصر لقبصر وما لله لله"، بينما الحقيقة لدى أوليفيه هو أن جميع الأديان تملك موقفاً رافضاً للإقصاء العلماني.

يؤكد الكتاب في ثناياه على أن المجتمعات المسلمة صنعت أشكالاً مختلفة من الدنيوية الخاصة بها؛ إذ إن الدنيوية بحسب إشارات أوليفيه ظاهرة اجتماعية لا تتطلب أي استخدام سياسي، إلا أنها نابعة برأيه من انزياح جوهري الدين عند المسلمين أو عموم المؤمنين بالأديان من المركز وانتقاله إلى دائرة الاهتمام التعبدية والشعوري، أما العلمانية فهي خيار سياسي يحدّد بأسلوب سلطوي وقانوني مكان الدين، دون أن "تنبذ الدين بالضرورة في القطاع الخاص، خلافاً ما تفيد به أسطورة شائعة؛ والأحرى أنّها تُعيّن، وإذا تحددت، بكلّ معاني الكلمة، إمكان رؤية الدين في المجال العام"¹⁹.

خامساً: العلاقة بين الدنيوي والعلماني والديني

برأي أوليفيه فإن الدنيوية ليست ضدّ الدين إلا أنها تعمد إلى إخراج تأثيره من المجال السياسي، أما العلمانية فهي خصوصية فرنسية غير مفهومة في بلاد أوروبية أو غربية أخرى كبريطانيا؛ التي يمكن لموظفات الجمارك والشّرطيات أن يرتدين الحجاب فيها، وكالولايات المتحدة حيث لا يمكن للرئيس أن ينتخب من دون أن يتكلم عن الله²⁰.

إن العلمانية الفرنسية موجهة في الأساس ضدّ الكنيسة الكاثوليكية من حيث إنها تريد فكّ الارتباط بين الدولة والمجتمع وتحريرها من تأثير الكنيسة لا الدين، أي أنها ليست ضدّ وجود الدين بالضرورة.

يشير المفكر الفرنسي إلى أن المشكلة الفرنسية الرئيسية تكمن في نقل مساحة الصراع من الكاثوليكية إلى الإسلام، إذ تعزل الحكومة الفرنسية الإسلام عن الحضور الاجتماعي باعتباره أصولياً أو متطرفاً، ومحض دخول الإسلام إلى فرنسا جعل منه عاملاً جديداً معادلة النزاع، مما دفع فرنسا إلى التعامل معه بذات المنطق التوافقي

ينظر المصدر السابق، ص: 37، 18.

ينظر المصدر السابق، ص: 54، 19.

ينظر المصدر السابق، ص: 29، 20.

مع الكاثوليكية المسيحية²¹، في حين أنه يرى أن الحل يكمن في قبوله جزءاً من هوية فرنسا ثم التعامل معه على أساس ذلك؛ إذ إن التهميش والإبعاد سينتج عنهما العنف والتطرف²².

ويتساءل الكاتب عن سبب مساءلة المجتمع الفرنسي للإسلام في قضية التطرف والقبول بالعلمانية دون التعرض للاهوت المسيحي الذي لم يكن قابلاً بها كذلك، إلا أن تطويعاً تم القيام به للاهوت وللعلمانية لإيجاد نقطة الحياد، ويرى أنه من الممكن تحقيق ذلك بالاتفاق مع اللاهوت الإسلامي على ضرورة الحياد عن السياسي²³.

خاتمة

يفترض أوليفيه سيناريوهات محتملة حول ازدياد التسامح مع المسلمين في أوروبا أو تصاعد الكراهية ضدهم، إلا أنه يشير إلى أن فرنسا تبقى مرشحة لأن تكون في دائرة التوتر دوماً، ومن هنا يشير أوليفيه إلى ضرورة ترسيخ النقطة الآتية وهي أن المشكلة ليست في الإسلام بل في تعامل فرنسا مع الدين بصفة عامة، أو بالأحرى الأشكال المعاصرة للعودة إلى الدين²⁴

في الختام، فإن أطروحة أوليفيه تتمحور حول ضرورة تعريف الدين على نحو جديد، إذ إن تأكيد الهوية الدينية المسلمة في الغرب يفترض ذلك اجتماعياً وثقافياً، إلا أن هذا الافتراض سيظهر تفاوتاً بين الواقع والمفهوم، خاصة في ظل التطورات التي تُجبر الفرد على تحديد علاقته الشخصية بالدين، ويشير في هذا الإطار إلى أن الممارسة الحسية للمسلمين ترسم علاقة جديدة مع الدنيوية والعلمانية بعيداً عن الآراء اللاهوتية سواء من الناحية اليومية أو السياسية²⁵، ولذا لا بدّ من بحث حدود العلاقة بين المجال الديني والمجال السياسي، وكيف يمكن أن يُحدث توافقاً مستقبلياً بين الإسلام والعلمانية في المجتمعات الغربية.

ينظر المصدر السابق، ص: 2141

ينظر المصدر السابق، ص: 2236

ينظر المصدر السابق، ص: 2350

. ينظر المصدر السابق، ص: 24174

ينظر المصدر السابق، ص: 25159



جسور

جسور للدراسات
JUSOOR for STUDIES

محل اوف اسطنبول - مكاتب بلزا
طابق/2-مكتب 3-# باشاك شهير
اسطنبول - تركيا

+ 90 555 056 06 66

/jusoorstudies

/jusoorstudies

/jusoorstudies

info@jusoor.co

www.jusoor.co